صلاح عبد الصبور بين الغربة النفسية والاغتراب الفكري

د.وردة ربعاني
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار- عنابة

ملخص

عانى الشعراء المعاصرون من الغربة النفسية نتيجة حملهم لأفكار لا تنسجم مع مجتمعاتهم مثلما عانوا من ظاهرة الاغتراب نتيجة الضياع النفسي والاضطراب الفكري، ونتيجة تأثرهم بالأدب الغربي الحديث. رأى هؤلاء الشعراء أن الشكل القديم للنص الشعري لم يعد ملائما لتجربتهم الشعرية، فابتكروا شكلا جديدا يعبّرون به عن مضامين جديدة ارتبطت بالحركة الشعرية الحديثة. ومن هؤلاء الشعراء صلاح عبد الصبور الذي نستبين في مقالنا أهم مظاهر اغترابه بعد أن نوضّح مفهوم الاغتراب وعلاقته بمصطلح الغربة.

الكلمات المفاتيح: اغتراب فكري، ضياع نفسي، شعر معاصر، أدب غربي حديث.

Salah Abdel Sabour entre les aliénations psychique et intellectuelle

Résumé

Le poète contemporain a subi une aliénation psychique à cause de ses idées incompatibles avec sa société. Il souffre du phénomène d'aliénation suite à une instabilité psychologique, une confusion intellectuelle, en plus de l'influence de la littérature occidentale moderne. Parmi ces poètes « Salah Abdel Sabour » que nous allons évoquer dans notre article, en montrant les aspects les plus importants de son aliénation après avoir expliqué ce concept.

Mots-clés: Aliénation mentale, perte psychologique, poète contemporain, littérature occidentale moderne.

Salah Abdel Sabour between psychic and ideological alienation

Abstract

The contemporary poet suffered from insanity as a result of incompatible ideas with his community. He suffered also from the phenomenon of alienation as a result of the psychological confusion, the ideological loss, and the impact of the modern Western literature. The contemporary poet sees that the former form of poetic text is no longer compatible to his poetic experience; thus, he has created a new form through which he expresses new themes related to the modern poetic movement. Among these poets, we have « Salah Abdel Sabour ». In our article we will study the most important aspects of his alienation after explaining this latter.

Key words: Mental alienation, psychological loss, contemporary poet, modern western literature.

مقدمــة

بعد هزيمة الجيوش العربية عام 1949 ظهرت عوامل تاريخية وسياسية أدت إلى خلخلة المنظومة الاجتماعية والفكرية السائدة. ولم يستسغ بعض الشعراء المحدثين طعم هذه الهزيمة، فهمّوا بالهروب بوساطة الانفتاح على التيارات الفكرية الغربية كالفلسفة والأدب. ورأوا أن الخلاص يكمن في الإلمام بكل أنواع المعارف الإنسانية، لذلك كانت ثقافة الشاعر الحديث متنوعة المشارب كثيرة الروافد.

رأى الشاعر المحدث أن الشكل القديم للنص الشعري لم يعد ملائما لتجربته الشعرية، فابتكر شكلا جديدا يعبر من خلاله عن مضامين جديدة ارتبطت بالحركة الشعرية الحديثة. ومن أهم هذه المضامين تجربة الضياع والغربة التي يمكن أن نستشفها عند كل من عبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور الذي سنفصل الحديث عن أسباب غربته وأنواعها.

الاغتراب ظاهرة إنسانية توجد في مختلف أنماط الحياة وفي كل الثقافات وهو من المفاهيم الحديثة[1]. ويعزو بعض النقاد المحدثين ظاهرة الاغتراب إلى تأثر الشاعر العربي المعاصر بالأدب الغربي. ويقال كذلك "إن النزعة الحزينة في شعرنا المعاصر ليست إلا نوعا من التأثر بأحزان الشاعر الأوربي الحديث الذي عاين طغيان الحضارة المادية على روح الإنسان الغربي وخاصة في القرن العشرين. ولا يمكننا في الحقيقة أن ننكر التأثير المباشر وغير المباشر لشعر (ت.س. إليوت)"[2]، وهو من أكثر الشعراء الأوربيين المحدثين الذي ينعى على الحضارة الأوروبية المعاصرة إقفار الروح فيها، خاصة في قصيدتيه المشهورتين (الأرض الخراب) و(الرجال الجوف). أشاع إليوت فكر التشاؤم والحزن والسأم والاغتراب في قصيدة (الأرض الخراب) والتي يمتح منها أغلب شعرائنا المعاصرين مضامين قصائدهم التي كانت تنضح بالحزن والأسى اللذين توفرت أسبابها عند الإنسان العربي عموما والشاعر العربي خصوصا. ولذاك فإن هذا السأم والحزن قد يكون من العوامل التي أثرت في نفسية صلاح عبد الصبور، وعمَّقت فيه ذلك الاتجاه إلى السأم والاغتراب الذي يبدو جليا في شعره[3].

تعريف ظاهرة الاغتراب:

- الدلالة اللغوية:

إن ما لفت انتباهنا في المعاجم العربية، هو تلك الموازاة والجمع بين لفظي الغربة والاغتراب، الشيء الذي قادنا إلى محاولة ضبط الوشائج بينهما علنا نخرج بتعريف دقيق للاغتراب. ومتى تصفحنا المعاجم العربية لفتنا ورود لفظ الاغتراب بمعنى الغربة عن الوطن، يضاف إليه في بعضها زواج الرجل في غير أقاربه واتفاقها جميعها حول ذاك[4]. ففي كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي تكون: "الغربة والاغتراب عن الوطن وغرب فلان عنا يغرب غربا أي تنحى وأغربته وغربته أي نحيته والغربة والنوى البعيد"[5].

ويتكرر المعنى ذاته في لسان العرب لابن منظور إذ يقول: [...] الغربة والغرب: النزوح عن الوطن [...] والاغتراب والتغرب، كذلك تقول تغرب واغتراب وقد غربه الدهر، ورجل غرب بضم الغين والراء وغريب بعيد عن وطنه، الجمع غرباء والأنثى غريبة [...] واغتراب الرجل: نكح الغرائب وتزوج إلى غير أقاربه [...] والاغتراب افتعال من الغربة ...

وقد حافظت المعاجم الحديثة على الاستخدام نفسه، ومن ذلك أن ذهب المعجم الوسيط المذهب ذاته في أن /(غرب) عن وطنه غرابة وغربة: ابتعد عنه ...(اغترب)[6].

ورد هذا المصطلح في الشعر العربي في قول الشاعر:

ليس الغريب غريب الشام واليمن

إن الغريب غريب اللحد والكفن

إن الغريب له الحق لغربته

على المقيمين في الأوطان والسكن

لا تنهرن غريبا حال غربته

الدهر ينهره بالذل والمحن

وقد لا يقصد من الغربة غربة الأوطان بل غربة الأبدان في الظلمات، غربة الأشلاء بين الدود والتراب يوم تكون وحيدا في القبر في ذلك المكان الموحش القاسي.

وتحافظ بعض المعاجم العربية المختصة على نفس التعريف. فقد ذهب المعجم الفلسفي في تعريفه للاغتراب إلى القول بأنه: "يعنى حالة انفصال واستلاب، وهو إحساس الإنسان بأنه ليس في بيته وموطنه أو مكانه[7].

ولم تخرج المعاجم الأجنبية القديمة كذلك عن هذه المداخلة بين الغربة والاغتراب، وجاءت المعاني الحرفية للفظ (Entfremdung) الألماني الذي يعني الغربة ولفظ (Alienation) الإنجليزي الذي يعني الاغتراب والأفعال المشتقة منها متماثلة للغاية بحيث يقابل الكلمة العربية (اغتراب)، الكلمة الفرنسية (Aliénation) والكلمة الإنجليزية (Alienation) والألمانية (Entfremdung) والكلمة اللاتينية (Aliento) وتعني في الحالات الأربع الغربة والاغتراب اسم يستمد معناه من الفعل اللاتيني (Alienare)، وهي كلمة تنتمي في الأصل إلى المجال الحقوقي، بمعنى تحويل شيء ما من ملكية شخص إلى آخر، أو من فعل آخر هو (Alienus) أي ينتمي إلى شخص آخر أو يتعلق به، ويعود هذا الفعل في نهاية الأمر إلى لفظ (Aluis) الذي يعني الآخر اسما كان أو صفة[8]، ومثل هذه التعريفات تؤكد على تصور يكاد يكون واحداً فحواه:

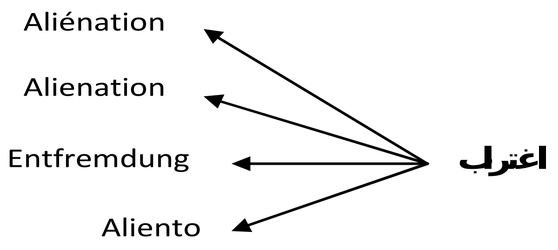

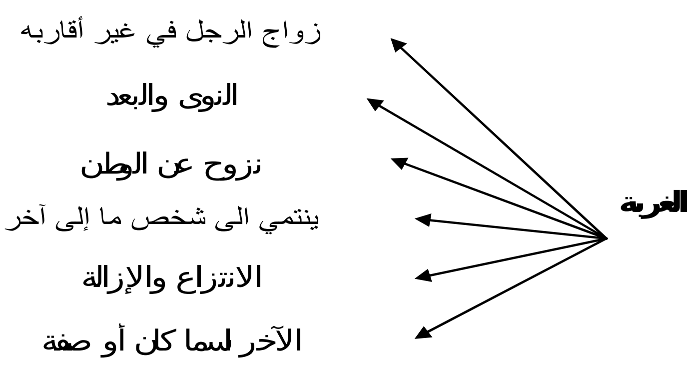

الدلالة الاصطلاحية: لا يعد مفهوم الاغتراب من المفاهيم المألوفة، وذلك لمحاولاته الرامية إلى الخوض في شعور واسع الانتشار، غاية في الذاتية، شعورا يصعب تعريفه ممتزجا بمحاولة متزامنة لتأويل طبيعة المجتمع الذي يكمن وراء نشوئه.

لقد ظهرت مشاريع التنظير الأولى لمفهوم الاغتراب في أعمال المفكرين الاجتماعيين أمثال (ألكس ودوركايم وماكس ويبر) والروائيين أمثال(فيدور وفرنارد) والفلاسفة أمثال (فيرنارد ريش) وغيرهم، حيث عُدَّ هؤلاء الاغتراب "الجانب السفلي الأظلم لكل القيم الإيجابية للحداثة، والتجارب المفصومة عن كل المصادر السابقة للمعنى كالمجتمع، وهيئة الكهنوت المتسلسلة المراتب، وكل ما يحمل قدسية، وبمعنى أدقّ: النقطة التي تصبح فيها حالة الذات المتفردة مجرد عُزلة، وتصبح الحرية مجرد صورة لحالة اللاتأصل أو اللاانتماء، ويتخّذ مذهب المساواة فيها صيغة لتحطيم كل القيم ..." (9).

أما نظريات ما بعد الحداثة فترى بأن الاغتراب "مقياس لدرجة الاستثناء من الاتجاه العام"، أما على المستوى الاجتماعي فيقال إن تصور عصر ما بعد الحداثة لمفهوم الاغتراب قد تشكل نتيجة التخمة أكثر مما هو رد فعل لنقص الحريات، وهي الفكرة التي يبدو من شبه المستحيل هضمها من قبل تلك التي برزت في أواخر القرن التاسع عشر حينما جرى تحليل المفاهيم الحديثة للاغتراب.

لقد بقي التقارب بين هاذين التصورين صعبا حتى الآن ربما باستثناء ما يتعلق بأفكار أنصار البيئة مؤخرا حول العزلة عن الطبيعة(10).

والاغتراب "ليس مرضا كما أنه ليس نعمة إنه ملمح رئيسي للوجود الإنساني(11) أي أنه "انفصال بين الوجوب والوجود"(12)، بمعنى أن الإنسان المغترب قد فقد اتجاهه وأصبح مشتتا فاقدا لبوصلة النجاح، فالعالم على –حد تعبير عالم الاجتماع المعاصر سيمون – يتجه "إلى الجحيم في سلة واحدة (...) ثم تستحيل السّلة إلى مصْيدة لا يعرف الإنسان منها فكاكا"(13).

بين الغربة والاغتراب:

إن الحديث عن الاغتراب يقودنا إلى الحديث عن الغربة، مما يجعلنا نؤكد عن الفرق بينهما، وهذا الفرق بمثابة الجزء من الكل. فالاغتراب هو "ذلك العزل المتزايد للنفس والذهن يدفع ذوي الحساسية المفرطة الدافعة إلى ضروب من الإبداع أو التعبير عن الذات، إذ يدرك المرء أنه باكتسابه المعرفة والقدرة على التعبير عن الذات، وبتوصيله إلى رؤية معينة يتحرك ذهنه باتجاهها إنما هو يكتسب تناقضا مع مجتمعه يضطر عند نقطة ما من توتره أن يقتلع نفسه حتى الجذور من الأرض التي نما فيها وترعرع، ويمسي كالشجرة التي اجتثتها الرياح العاصفة، وأسقطتها على الصخور بكل فروعها وأوراقها وليس لها أن تنتظر سوى الجفاف"(14).

فالاغتراب حالة مستمرة وليست مؤقتة تلازم الإنسان سواء أكان بين أهله أو مغتربا بغيابه عن الوطن والعكس صحيح.

إن رؤية المغترب تتجسد في بحثه عن ماهيته لأنه يفقد وعيه ذاته، ويفقد الإحساس بكينونته الحقيقية فتسيطر عليه رؤية التشتت، فهذه الرؤى الاغترابية التي تتلخص في فقدان التوازن، وفي الخلخلة والتزلزل والانهيار والتصدع وعدم الاستقرار تشكل فحوى الاغتراب وتجلياته، ولقد استخدم الدارسون الغربيون مصطلح الاغتراب بالتعبير عن ما يحسه الإنسان في مجتمعه البشري " قشة " تعصف بها أهواء الحياة ومغريات البيئة. في حين أن

الغربة مصطلح عربي يفيد أكثر معنى البعد عن الوطن وفراق الأهل وهو معنى مكاني أكثر منه زماني، وهذا المعنى حمله أول كتاب خاص بظاهرة الغربة والحنين في الأدب العربي، وهو كتاب (أدب الغرباء) لأبي الفرج الاصفهاني، يقول صاحبه "جمعت في هذا الكتاب ما عرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعرا في غربة من كربة"[15]. فالغربة ظاهرة قديمة كما ذكرت المصادر العربية أن الإنسان الجاهلي ربطها بكثير من المعاني التي تتعلق بها، فيذكر الجاحظ كلاما كثيرا عن تشاؤمهم بالغراب، ومن أجل تشاؤمهم به اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب[16].

فالغربة هي النفي الاضطراري والابتعاد عن الأهل والغياب عن الوطن والشعور بالحنين من جراء الوحدة، تحمل في ثناياها معنى البين والحزن والشؤم، ويشترك في ذلك مصطلح الغربة والاغتراب دون تمييز بين الاسمين.

أنواع الاغتراب:

يعد الاغتراب من أكثر المصطلحات لبسا وإشكالية، ذلك أن الشخصية المغتربة لا تغترب عن ذاتها والآخرين فحسب، وإنما قد تغترب أيضا عن الإله والطبيعة والعمل والأشياء... وهو أنواع:

1- الاغتراب الميتافيزيقي: وهو ذلك الاغتراب الذي تطلب فيــه معرفتان يسعى المغترب لإدراكهما هما معرفة الله ومعرفة الذات.

2- الاغتراب الذاتي: وهي تلك المرحلة التي تعيش فيها الشخصية المغتربة ذاتها وكأنها غريبة عنها جراء تشيئ هذه الذات.

3- الاغتراب الاجتماعي: وهي علاقة تتنافر فيها الذات المغتربة مع مجتمعها، فتفضل الابتعاد والانعزال رافضة التعامل مع الناس، ويكون الشخص الذي يضع التقاليد موضع التساؤل أو يخرج عنها. وكلما كانت أصالته أكثر عمقا ازداد عمق اضطراره للاغتراب عن مجتمعه[17]، فينفصل عنهم شاعرا تجاههم بالعداء.

4- الاغتراب الديني: يراه (لودفيغ) في ارتكاب الإنسان لخطيئة ما، ينجر عنها انفصاله عن الله واغترابه عنه.

وتتنوع الغربة في أشعار المحدثين لتشمل الغربة في الكون، والغربة في المدينة والغربة في الحب والغربة في الكلمة. وسنفصل فيها كما يأتي:

1- الغربة في الكون: وترتبط بميل الشاعر المعاصر إلى الشك في الحقائق والميل إلى التفلسف الوجودي وتفسير الكون عقلا ومنطقا، والدافع إلى ذلك أن الشاعر يحس بالعبث والقلق والمرارة المظلمة، كما نجد ذلك في نصوص صلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب وأدونيس ويوسف الخال وغيرهم.

2- الغربة في المدينة: وتتجلى في تبرم الشاعر من المكان المديني الذي حوّل الإنسان إلى مادة محنطة بالقيم المصطنعة الزائفة، واتخذت المدينة في شعر هؤلاء قناعا سياسيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا يشعر بالغرابة في أبعادها الذاتية والموضوعية. وعليه فقد صوّر الشعر المعاصر المدينة في ثوبها المادي، ويلاحظ أن الشعراء المعاصرين لم يستطيعوا الهروب إلى الريف أو إلى عالم الغاب كما فعل الرومانسيون.

3- الغربة في الحب: إذا كان الشاعر الحديث قد فشل في فهم أسرار الكون ووجوده وفشل كذلك في التأقلم مع المدينة فإنه فشل كذلك في الحب الذي أصبح زيفا مصطنعا وبريقا واهما.

4- الغربة في الكلمة: أراد الشاعر المعاصر أن تصبح كلمته سيفا في وجه الظلم لكن كلمته دخلت غربتها في واقع لا يعرف سوى الصدى وخنق الجهر وقتل الكلام الصارخ.

ومن هنا، فالغربة في الكون أو في الكلمة أو في المدينة أو في الحب، " ليست سوى وجه واحد من عدة أوجه يمكن تصورها لغربة الشاعر العربي في واقع ما بعد النكبة"[18].

ويلاحظ أن الشاعر المعاصر لم يقف عند لون واحد من الغربة، فهناك من مزج بين لونين ومن تحدث عن الألوان الثلاثة للغربة، وهناك من جمع بين الأربعة في وحدة شعرية منصهرة.

ويبدو أن سبب هذا الضياع عند الشعراء المحدثين هو تأثرهم بالأدب الوجودي كما عند سارتر وألبير كامو، ومن الشعراء الذين تغنوا بالسأم الوجودي والقلق والاغتراب والضياع "صلاح عبد الصبور" الذي سنتحدث عنه في مقالنا هذا.

مسببات الاغتراب:

إن ظاهرة الاغتراب التي شاعت في الأعمال الأدبية العربية أو الغربية لم تنبع من فراغ أو صدرت من اللاشيء بل جاءت إقرارا حتميا لمواقف اجتماعية ونفسية، وحصيلة منطقية لظروف سياسية ومعطيات فكرية، وتطورها عبر الزمن أفرز لنا بالضرورة هذا الشعور بالغربة والإحساس بالاغتراب النفسي، وأهم هذه المسببات وما نجمله في ما يأتي:

1- المسببات السياسية:

تعتبر السلوكات الخارجية من أهم الأسباب السياسية التي مورست ضد الذات الإنسانية وكرهها على مغادرة حسها بالعالم، ومن بين هذه السلوكات يتفرع عنها سلوك القمع السياسي الذي تنتجه السلطة الديكتاتورية الممارسة ضد الطبقة المثقفة بالأخص، واعتبرته الخطر الرئيسي على وجودها لأنه الوعي الحقيقي المناقض لعماء السلطة الديكتاتورية[19]، وهي من الظواهر السلبية التي شاعت في كثير من الإدارات.

تعتبر ظاهرة الديكتاتورية مرضا يجب استئصاله لأنه يعطل مصالح الناس ويبدّد جهودهم ويولّد كثيرا من الآفاق التي تتنافى مع القيم الدينية والأخلاقية.

ومعنى ذلك أن أهم الأسباب السياسية القمع السياسي السائد حاليا في جميع الأنظمة العربية بصفة خاصة، إذ يلجأ حكام أو أمراء أو رؤساء هذه الشعوب إلى قمع شعوبهم وحرمان الأغلبية ممارسة ولو جزء من حقها، حيث يلجأ هؤلاء الحكام الذين استبدوا الحكم إلى نظام الديكتاتورية، مستعملين القمع السياسي ضد الطبقة المثقفة بصفة خاصة وحرمانها من ممارسة حقها السياسي، ذنبها أنها طبقة مثقفة حية. وهذا الذي يخشاه كل حكام الأنظمة العربية خوفا أن يخلعوا من مناصبهم، ولذا نلاحظ أن النظام السائد في جميع الدول العربية هو النظام الديكتاتوري، النظام المتعفن الطامح الذي يخلّف التفرقة والتجزئة في أوساط الشعوب ولا يخدمها بل يخدم خصيصا الحكام وشركائهم. غير أن معظم الشعوب بل كلها تسعى حاليا ومضحية بأغلى ما تملك كي تغير هذه الأنظمة الظالمة إلى أنظمة نزيهة وعادلة لن تقهر شعوبها ولن تظلمها بل تمجدها وتعتز بها لأنها تدرك جيدا أن سبب التقدم والازدهار والتحضر في جميع الميادين تكون الطبقة المثقفة هي السبب الرئيسي في تحقيقه، فالطبقة المثقفة هي الطبقة الحية التي يجب أن تشترك في أي مشروع ولا يجب أن تهمش وتضطهد.

2- المسببات الاجتماعية:

تفرض مجموعة من القيم الثابتة بمفهومها السلبي تخلفا اجتماعيا، وذلك من خلال ممارسة ضغطها على الإنسانية الطموحة تؤدي بها إلى اتجاه التراجع أو السكون والمحافظة. كما تسيطر على هذه القيم الثابتة قيمتان هما: السلطة الاجتماعية الطبقية والسلطة الاجتماعية العشيرية، ونظرا إلى التباين في قيم الإنسان والإنسان المعاصر بخاصة، وتمايزها عن هاتين القيمتين، يحدث اضطرابا للفئة التي تناصر تلك القيمتين الطبقي والعشيري، ومن الضروري أن تكون هذه الفئة المناصرة من الفئة المثقفة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة[(20)].

فالبيئة الاجتماعية وما فيها من ضغوط ومطالب قد يفشل الفرد في مقابلتها والعوامل الحضرية الثقافية المريضة التي تسود فيها عوامل الهدم والتعقيد الثقافي والتطور الحضاري السريع، وعدم توافر القدرة النفسية على التوافق معه ومع الحياة الصناعية المعقدة واضطرابات التنشئة الاجتماعية. فهذه العوامل بكاملها نتاج للطبيعة البيروقراطية المفروضة على الحياة في العصر الحديث وهذا يحدث الاغتراب.

نستطيع القول إن البيئة الاجتماعية لن تنجح إذا لم تكن حقا عدالة اجتماعية منصفة متفتحة يسودها تطور حضاري، ومجتمع أصيل متطور فكريا وخلقيا واجتماعيا، متفتحا حافظا لكل قيمة.

3- المسببات الحضارية:

الحضارة أو المدنية هي نتاج الإنسان الحضاري أو المدني. ونتاج هذا الإنسان هو الإنسان الاجتماعي الذي أدرك المجتمع ضرورته ويشارك بخصائصه الإنسانية والفكرية والوجدانية والسلوكية في تحقيق أهدافه. ولا نقصد هنا كل إنسان يعيش في مجتمع قائم هو إنسان اجتماعي وبالتالي مدني أو حضاري لأنه قد يوجد إنسان بدائي متخلف في مجتمع حضاري، لأنه قد لا يوجد إنسان بدائي متخلف في مجتمع حضاري قائم إلا إذا كان هذا الإنسان أنانيا فرديا يفكر تفكيرا ذاتيا ويتصرف أن غيره لا يوجد معه، بل الإنسان الاجتماعي هو نحو ما ذكرنا من أنه الذي تحوّل بالفعل في تفكيره ووجدانه وسلوكه إلى عضو في المجتمع ليساهم بما يملك من طاقات إنسانية في أهدافه والتزاماته "إذ من المفترض أن تكون منجزات الحضارة حلا وخلاصا للإنسان، ولكن الواقع الذي يكشف هو أن المنجزات تتحول إلى قيود تقوم بتكبيل الإنسان ومحاصرته"[(21)].

4- المسببات الفكرية:

وهي تمثل إحدى سيمات اغتراب الإنسان، فهي تتناول الطريقة التي يظلل بها التطور الحضاري وعي الإنسان، وتشير إلى الطريقة التي لابد أن يسيطر بها الوعي الحقيقي على ذلك الوعي الزائف. الإيديولوجية تعكس الواقع الاجتماعي المادي القائم، إذ لا يمكن للفكر أن يسمو على الواقع، ذلك أن الفكر والشعور هما في الحقيقة انعكاس للبناء الطبقي القائم. وعلى هذا النحو ينظر إلى الظواهر الإيديولوجية، المناخ الفكري، والمعتقدات العامة في المجتمع والمشكلات التي يعالجها العلماء والفلاسفة والنسق الاجتماعي والسياسي بصفة عامة. وتسعى هذه الإيديولوجية إلى تشويه وعي الناس بالواقع المادي الذي يعيشونه، فتظل الصورة المؤلمة لاغتراب الإنسان قائمة[(22)].

أما مسألة اغتراب المثقف بشكل أو بآخر فهو قد يكون مغتربا بغيابه عن الوطن، وقد يكون مغتربا وهو في قلب وطنه، وقد يغترب لأنه لم يعد ينسجم مع تقاليد وأعراف بلده مهما تكن أوضاعه السياسية.

وهناك من يغترب بسبب حسه القومي بقدر ما هنالك من يطلب الغنى في وطنه بسبب ذلك الحس بالذات[(23)].

ونستطيع القول إن الإيديولوجية تسعى –أحيانا– إلى تشويه وعي الإنسان بالواقع المادي فيتخلى عن مبادئه وقيمه

ويصبح خطرا على التطور الحضاري، وهذا هو الاغتراب بعينه؛ فقد يكون المثقف والمتعلم الذي انحرف عن مبادئه غريبا عن وسطه لأنه أصبح لا يخدمه وصار يسعى في خرابه وتهديمه. لهذا يجب على كل فرد أن يكون نافعا فعالا في مجتمعه وليس غريبا أو مغتربا فيه.

بعد عرضنا لهذه المفاهيم المختلفة التي تخص مصطلح الاغتراب، نحاول البحث عن تجليات هذه الظاهرة في شعر صلاح عبد الصبور.

أسباب الاغتراب في شعر صلاح عبد الصبور:

لقد كان الاحتجاج الذي أعلنه صلاح عبد الصبور في تجربته الشعرية على النقاد الذين وصفوه بالحزين احتجاجا غريبا ومبالغا حتى وإن أشار أولئك النقاد إلى إبعاده عن مدينة المستقبل السعيدة، بدعوى أنه يفسد المباهج والأفراح القائمة في شوارع تلك المدينة المزعومة. يقول صلاح عبد الصبور "يصفني نقادي أنني حزين، ويدينني بعضهم بحزني طالبا إبعادي عن مدينة المستقبل السعيدة بدعوى أنني أفسد آمالها وأحلامها بما أبذره من بذور الشك في قدرتها على تجاوز واقعها المزدهر(في رأيه). إلى مستقبل أزهر، وقد ينسى الكاتب أن الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعرا للخطر، ولكن الفئران حين تشعر بالخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر هربا من السفينة الغارقة، أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس ويصرخون بملء الفم، حتى ينقذوا السفينة، أو يغرقون معها. والحق أن آراء النقاد الذين يصدرون عن وجهة نظر غير فنية لا يستحق عناء الاهتمام. وتلك مثل آراء محترفي السياسة، ودعاة الإصلاح الديني، أو الأخلاقيين التقليديين أو ما شابههم، لأن كل هؤلاء لا يؤمنون بوجود الفن ككيان مستقل له طبيعته الخاصة، ولكنهم يتوهمونه تابعا ذليلا لفارسهم الأثير. فالسياسيون يتصورون الفن تابعا من توابع الأبنية الأساسية للمجتمع، ودعاة الإصلاح الديني يتوهمونه خادما ببغاويا لعقائدهم التحكمية، بينما يعدّه الآخرون وسيلة لبث الفضائل الاجتماعية والنهي عن الرذائل المقررة"[24]. فلماذا كان كل هذا الغضب من جانب "صلاح عبد الصبور" على ناقديه، ولماذا كل هذا التحامل والقسوة على الآراء السياسة على دعاة الإصلاح الديني والأخلاقي والاجتماعي؟

إنه موقف خطير ضار، وعلى ضوئه يمكن استرجاع جوانب عن تلك المعركة الهامشية التي دارت بينه وبين زميله الناقد الكبير الأستاذ (محمود أمين العالم). وهي معركة صوّر الجانب الكبير منها بأسلوب غير مباشر. وزمان المعركة على وجه التقريب لا التحديد عام 1964. فقد كتب الأستاذ العالم بعد خروجه من السجن مجموعة من المقالات النقدية المتفائلة أنحى فيها باللائمة على بعض الشعراء والكتاب الذين لا ينظرون بعين الأمل إلى ما يزخر به الواقع الجديد من التحولات، وقد طالب هؤلاء الشعراء والكتاب أن يقفوا إلى صف الفرح والثورة، إلى صف السد العالي، وبشكل مباشر أشار إلى بعض قصائد "صلاح عبد الصبور" المتّسمة بالحزن والمرارة. وأبدى قدرا من الاستنكار في أن يوجد في عصر الثورة وعصر السد العالي شعراء يستسلمون لأحزانهم الذاتية، ويعبرون عن أحزانهم غامضة ومقتبسة.

ولم يسكت صلاح بل رد على ملاحظات زميله بالتلميح أحيانا وبالتصريح أحيانا أخرى، وظلت كلمات العالم محفورة في نفسه. وحين أعدّ كتابه "حياتي في الشعر"، كان في بعض فصوله يتوقف وكأنه يرد على تلك الكلمات، فيشير من طرف بعيد إلى الأستاذ العالم مذكرا إياه بأسباب حزنه، ومنها أن تكون السجون مقرا للمفكرين والأدباء، وكان غبار السجن مازال عالقا بجبين الأستاذ العالم حين كتب ملاحظته.

اندفع "عبد الصبور" ليقول إن من حقه في زمن يكون نصيب العالم وأمثاله السجن ونصيب الآخرين من الجهلة والأغبياء التمتع غير المحدود بالجاه والثراء والنفوذ، ومن حق الشاعر أن يحزن في عالم ممتلئ بالتفاوت الطبقي والفوارق الاجتماعية، وممتلئ بما هو أمرّ وأنكى، بالتفاهة والتافهين، يقول صلاح عبد الصبور: "أتكون دورة الحياة إذن لونا من رحلة النهر إلى مصبه، ولكن ما بالها حافلة بالألم والشر، خالية من الحرية إلا تحت مستوى الضرورة وهي حرية دنيئة لا تليق بسيد الكون، ولكن في الرحلة إلى جانب ذلك ألوانا من الإبداع، فقد يتحقق فيها خلق للجمال والقيم، وقد يتحقق فيها صنوف من الابتكار الصناعي، وقد يتحقق فيها مسرات الحب والصحبة والضحك"(25).

ويواصل عبد الصبور قوله إن "العالم ما زال ممتلأ بالشر والفقر والألم، والبشرية ما زالت مريضة بالقسوة والإسفاف والتفاهة، لم يكف أن تكون حرية الإنسان تحت مستوى الضرورة إذ لا حرية للإنسان إزاء الإنسان، والأمر ليس أمر نظم أو تطبيقات اجتماعية، ولكنه أمر خيبة الإنسان في الارتقاء بحياته حتى يرفعها عن مستوى الضرورة؛ فالنظم الاجتماعية كانت ردا على فشل الإنسان في تجاوز همجية حياته. لقد وهب الإنسان الأرض عشرة آلاف سنة، ووهب إلى جوار ذلك عقلا وفكرا وتدبيرا يساعده على ربط السبب بالغاية. وكان في مقدوره أن يجعل من هذه الأرض جنته لو أحسن استغلال ميراثه العظيم، ولكنه جعل منها جحيمه المقيم، فما زال الفقر يقتل الملايين في مكان ما من العالم. كل منجزات الإنسان من علم وصناعة قد استغلها دون إدراك أو تبصر أو إنسانية، ولقد نشأت الصناعة وتركزت في أيدي المغامرين والرأسماليين. حتى التكنولوجيا تستغل في التعذيب. هذا قليل من بعض مما يراه الشاعر داعيا للحزن أو كما يرى"(26).

يريد إنّ يقول أن هذه بواعث للألم، وإذا كانت هذه نماذج حياته من الهموم التي تسكن الشاعر وتصنع آلامه فإن الموت هم آخر، بل هو سيد الهموم والمنقذ منها جميعا، والشاعر الذي تسكنه فكرة الموت لا يستطيع أن يواجه الحياة إلا بعينين دامعتين وبقلب راجف. وبالرغم من أن عبد الصبور يقول إن ما يجمع البشر جميعا هو مواجهتهم للحياة، وهو تعبير يقترب من الشرط البشري الذي أطلقه (مارلو) بتصوير يحفز الإنسان لمواجهته قوى الشر والعدم إلا أنه يرتعش أمام ذكر الموت وينسى شرط المواجهة(27) ويتحول إلى إنسان ضنين بحياته خائف على مصيرها.

تلك هي بواعث الألم في نفس الشاعر، عذاب الآخرين وتفاهة الآخرين وظلم الآخرين ثم الموت، هذا الوحش المتربص بالإنسان في شارع الحياة القصيرة، وفقدان الحياة عن وجودها، فهذه البواعث هي نفسها الأسباب التي جعلت عبد الصبور شاعرا مغتربا، فهي تكاد تكون الأسباب نفسها التي جعلت منه شاعرا، فالشعر عنده يقوم على ثلاثة مؤثرات هي الحب والحزن والموت، وما دام هذا الثلاثي قائما فإن الشعر سيظل موجودا. فصلاح عبد الصبور تمحورت فكرته التي اختارها لنفسه أن يكون شاعرا متألما ومغتربا، وقد ارتفع بالألم إلى درجة المسؤولية، والإنسان ليس له أمام هذا الكون المضطرب إلا أن يختار موقفا من ثلاث: موقف المسؤولية بما يتبعه من ألم وموقف الانتحار المادي ثم الموقف الثالث وهو موقف الانتحار الأخلاقي، ولكن عبد الصبور اختار موقف المسؤولية والألم، ولذلك اختار أن يعيش من أجل أعظم الفضائل، والفضائل عنده ثلاث هي: العدل والصدق والحرية، وهو يقول عن شعره إنني من أجله أنزف، وهذا النزيف يجعل شاعرنا مغتربا باحثا عن الخلاص.

انطلاقا من هذه الأسباب التي جعلت شاعرنا صلاح عبد الصبور مغتربا نحاول الولوج في عالمه الشعري متلمسين أثر هذه الظاهرة أو تجلياتها فيه.

يمثل الشعور بالغربة والضياع بعدا آخرا من تجربة الشاعر الحزينة، فهي ليست تجربة مقصورة على الإحساس بالغربة والضياع فقط بل هي تمتد إلى الصراع القائم بين الذات والوجود[28].

1- الاغتراب الوجودي:

فحينما تصطدم الذات بالوجود، فإنها تعجز على تحقيق تطلعاتها وأحلامها لأنها عندئذ تتحرك وتسير وحدها[29]، وتظل محبوسة في إطارها الضيق مادامت تؤمن بمنطقها ونظرتها الخاصة في تقييم الوجود. ويترتب عن هذا إحساس الشاعر بالغربة والضياع، وهذا ما نلمسه في قصيدة (رحلة في الليل) التي تتسم بحزن نابع من غربة الشاعر وضياعه في متاهات الوجود. يقول صلاح عبد الصبور:

الليل يا صديقتي ينفضني بلا ضمير
ويطلق الظنون في فراشي الصغير
ويثقل الفؤاد بالسواد
ورحلة الضياع في بحر الحداد[30]

من المتعارف عليه في موروثنا الأدبي والشعري أن شاعرنا العربي قد تحدث عن الليل باعتباره يسلمه إلى الوحدة التي تجعله معذبا بسبب الحب والوله أو متألما بسبب الأسقام والأمراض. أما عبد الصبور فمعاناته تختلف كليا عمن سبقه، فليل الشاعر يسلمه إلى التفكير الذي يقدّ مضجعه ويجعل النوم يجافي عينيه فيعاني السهاد بسبب أفكاره الشاردة التي تسلمه إلى الضياع وتفرض عليه أن يبحر في بحر من الأحزان التي تثقل كاهله وفؤاده لكثرتها وتنوعها.

ويستمر عبد الصبور في وصف قدوم الليل لشدة خوفه منه فيقول:

فحين يقبل المساء يقفر الطريق والظلام محنة الغريب
يهب ثلة الرفاق فض مجلس السمر
إلى اللقاء –وافترقنا–نلتقي مساء غد
الرخ مات –فاحترس– الشاه مات
لم ينجه التدبير، أني لاعب خطير
إلى اللقاء –وافترقنا– نلتقي مساء غد [31]

حينما يحس عبد الصبور بقدوم الليل بقوله "حين يقبل المساء" ينتابه الإحساس بالغربة، وحينها يصبح وحيدا لأن الطريق يقفر من الناس ومن الأصدقاء الذين كانوا يؤنسون وحدته، ويعمّ الظلام الذي يخيف الشاعر ويعاني وقتها محنه الغربة. كان لما يجتمع معه الرفاق يقاسم هذه الهواجس أو يهرب إليهم من أفكاره خاصة تلك التي تتعلق بالوجود حيث يحاول الفرار من الغربة في هذا الوجود. والحقيقة أن إنكار عبد الصبور هو الذي ولّد فيه الخوف من المستقبل أو دعنا نقول من الموت الذي أفرد له قصائد بعينها يتحدث فيها عن خوفه الشديد من الموت وعن كيفية موته، وعن بطش الموت له، والقضاء على جميع آماله وأحلامه. يركز صلاح عبد الصبور على لفظة الموت (الرخ مات، الشاه مات) فالموت قادم لا محالة لكل محترس فقد (لا ينجه التدبير).

فالليل عند صلاح عبد الصبور هو رمز للغربة والضياع. ولذلك فأسباب السعادة المذكورة في القصيدة كشرب الخمر ومعاشرة النساء والتي تعتبر ملاكًا ما يصبو إليه كثير من الناس. فهي بالنسبة لعبد الصبور مجرد ومضات لا تلبث أن تتلاشى ويعود الضياع ويعود الليل بوحشته وقسوته من جديد. فهي بالنسبة له تمر كأنها أحلام، فإحساس الشاعر هنا إحساس كوني وكياني معا وهو رمز للعلاقة بين الوجود والذات(32). يقول الشاعر:

وفي فراشي الظنون لم تدع جفني ينام

مازال في عرض الطريق تائهون يظلعون

ثلاثة أصواتهم تنداح في دوامة السكون كأنهم يبكون

لا شيء في الدنيا جميل كالنساء في الشتاء

الخمر تهتك السرار

وتفضح الأزار

والشعار والدثار

ويضحكون ضحكة بلا تخوم

ويقفر الطريق من ثغاء هؤلاء (33)

الاغتراب الاجتماعي: وينقلنا صلاح عبد الصبور إلى سبب آخر من أسباب الضياع، هو أن الأشياء التي كانت تجلب المسرات أصبحت باهتة فاترة لا تجلب الكثير من السعادة، لأن الإنسان في سأم دائم وعميق قد لا تحركه مثل لحظات السعادة هذه إلا بالنزر القليل، ثم يعود إلى سابق عهده إنسانًا حزينًا لأن كل شيء أصبح بلا قيمة، يقول عبد الصبور:

هذا زمان السأم

نفخ الأراحيل سأم

دبيب فخذ امراة ما بين إليتي رجل سأم

لا عمق للألم

لأنه كالزيت فوق صفحة السأم

لا طعم للندم

لأنهم لا يحملون الوزر إلا لحظة

ويهبط للندم

يفشلهم من رأسهم إلى القدم

طهارة بيضاء تنبت القبور في مغاور الندم

تدفن فيها جثث الأفكار والأحزان من ترابها (34).

فالشاعر في هذه الأبيات متأثر بواقع راكد يحس فيه الإنسان بالسأم لأن البهجة وأسبابها لا تعرف إلى فؤاده طريقا وإن عرفت فهي آنية سطحية غير مؤثرة وغير مجدية. فإنسان هذا العصر قلق سريع الغضب يستمرئ النعم، أي لا يقيم لها وزنا، ولهذا فهو يضيع على نفسه فرصة التمتع بها لأن حياته بلا جدوى وبلا هدف. فهو يجعل من معاقرة الملذات سبيلا لنسيان أحزانه ودفن أفكاره.

والملاحظ أن هذا الواقع المفعم بالسأم يلقي بظلاله الكئيبة على ذات الشاعر إلى قاع السأم والرتابة والإحساس بالغربة ويحول العالم من حوله إلى تماثيل إنسانية تفتقد كل الجوانب المشرقة بالتواصل الإنساني. فهذا الاختلاف

بين الواقع وبين التطلع هو الذي جعل الشاعر يشعر بغربته، وهو الذي أوجد في نفسه نوعا من الحزن والنفور والرفض المطلق لما هو كائن وموجود لأنه أضاع كل شيء حسب تعبيره في قوله:

أنا الذي رجعت من بحار الفكر دون فكر

قابلني الفكر ولكني رجعت دون فكر

أنا رجعت من بحار الموت دون موت

حتى أتاني الموت لم يجد لي ما يميته

وعدت دون موت [35].

فصلاح عبد الصبور الرجل المثقف الذي يمّم الأمصار بحثا عن المعارف والثقافات، والذي جمع من العلم والمعرفة ما جمع، والذي مكّنته الظروف من معرفة الكثير عن أحوال الناس والشعوب، يحسّ بحيرة نفسية وقلق فكري نتيجة ثقل الواقع وإحساسه بعجزه عن مواجهته.

لقد تحول كل شيء إلى مرارة محزنة حطمت الإحساس بالرضا والقبول، وفتحت المجال أمام مباحث التمرد والغربة، وأصبح السأم سجنا لإنسان هذا العصر، فالرغبة في الحياة يفسدها السأم، فالحياة والموت ليسا إلا وجهتين لتجربة واحدة هي تجربة السأم. فالسأم هو الحقيقة التي نستطيع أن ندرك من خلالها معنى الحياة والموت على حد السواء. فالسأم يجعل الإنسان خاملا، خامدا يميت ساعاته وأوقاته كأنه حريص على إنهاء أيام عمره حتى يستتر تحت التراب. وهذا كله بدافع السأم. ولذلك نخلص إلى نتيجة أن السأم أحد أسباب موتنا وهو سر اغتراب شاعرنا صلاح عبد الصبور الذي يقول:

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله

ورؤوس الناس على حثث الحيوانات

ورؤوس الحيوانات على جثث الناس

فتحسس رأسك[36].

أي زمن هذا الذي ينعاه شاعرنا، ويذكر أنه زمن اختلط فيه الحابل بالنابل، فضاعت فيه الحقوق حيث أصبح القاتل لا يدري لماذا قتل؟ كما أصبح المقتول لا يعلم من قاتله، فقد يكون الإنسان هو قاتل نفسه أو يكون قد قتله غيره، فالمهم أن المعايير قد تلاشت والموازين قد اختلت وضاع كل ما من شأنه أن يضبط المجتمع. بغى الشر على الخير فضاعت الحقيقة. وكما تلازم الخير والشر في هذه الحياة تلازمت الحياة والموت، وبالتالي تلازم الظل والصليب التي يقدم فيها شاعرنا على استخدام الأقنعة والرموز من أجل إبداع الواقع أو الكشف عن حقيقته. يقول عبد الصبور:

أنا الذي أحيا بلا أبعاد

أنا الذي أحيا بلا آماد

أنا الذي أحيا بلا أمجاد

أنا الذي أحيا بلا ظل بلا صليب

ومن يعش بظله يمشي إلى الصليب في نهاية الطريق[37]

فعبد الصبور متضجر من زيف الحياة الذي يعيشه الإنسان دون أن يحقق شيئا من مآربه أو أهدافه، وبذلك لا يحقق ذاته في هذا المجتمع، مما يحتم عليه العيش منزويا بعيدا عن الناس وعن المجتمع، وهذا ما يجعله غريبا ضائعا ميتا بالحياة، أو يصبح سئما مما يؤدي إلى اغترابه.

وفي قصيدة "مذكرات الصوفي بشر الحافي" يتخذ صلاح عبد الصبور من شخصية الرجل الصالح الصوفي (بشر الحافي) قناعا ليحدثنا عن هذا العصر –أي عصر الشاعر– الذي انقلبت فيه الموازين واضطربت الأمور حتى أمسى شرفاء هذا العصر غير راضين عما يحدث فيه:

يقول عبد الصبور على لسان بشر الحافي:

حين فقدنا الرضا
بما يريد القضا
لم تنزل الأمطار
لم تورق الأشجار
لم تلمع الأثمار
حين فقدنا الرضا
حين فقدنا الضحكا
تفجرت عيوننا .. بكا (38)

فشقاء الإنسان وكآبته مرده إلى عدم الرضا بما قسمه المالك سبحانه للخلق. فالرضا يبعث الطمأنينة في النفس والبركة في الرزق، ومنه يسرّ المرء ويهنأ. وعدم الرضا وعدم القناعة يورث القلق والهم الذي يؤدي بدوره إلى الغربة والضياع والسأم، وهذا ما تضمنته أبيات عبد الصبور السالفة الذكر.

ولما انقلبت موازين الحياة واغترب الإنسان في متاهات المدينة، ينصحنا عبد الصبور أن نصم آذاننا وأن نغلق أعيننا ونحرص على أن لا نتكلم حتى لا تتفاقم الأمور أكثر.

الاغتراب في الكلمة: يقول عبد الصبور:

احرص ألا تسمع
احرص ألا تنظر
احرص ألا تلمس
احرص ألا تتكلم
قف؟ (39)

ولكن شاعرنا يأبى إلا أن يتكلم ويحدثنا عن اغترابه في هذا العصر المليء بالمتناقضات، والذي هو أحد أسباب حزنه وألمه.

الاغتراب الزماني: نتيجة لاضطراب الأفكار في نفس عبد الصبور واحتدامها وطغيان بعضها، وسيطرة فكرة الإنكار على عقله، نراه ممزقا تائها خائفا من النهاية الحتمية التي تنتظره، ففي (أغنية للشتاء) (40) نتلمس خوفا شديدا من الموت ومن الوحدة، وهما يعمقان إحساسه بالغربة، خاصة وهو يدرك أن الموت والحياة متلازمان، وأن الموت نتيجة حتمية لكل حي.

يقول عبد الصبور:

[ينبئني] شتاء هذا العام أنني أموت وحدي

ذات شتاء مثله، ذات شتاء

[ينبئني] هذا المساء أنني أموت وحدي

ذات مساء

وأن أعوامي التي مضت كانت هباء

وأنني أقيم في العراء

[ينبئني] شتاء هذا العام أن داخلي مرتجف بردا

وأن قلبي ميت منذ الخريف

قد ذوى حين ذوت

أول أوراق الشجر

[ينبئني] شتاء هذا العام أن هيكلي مريض

وأن أنفاسي شوك

وأن كل خطوة في وسطها مغامرة

وقد أموت قبل أن تلحق رجل رجلا

في زحمة المدينة المنهمرة

أموت لا يعرفني أحد

أموت لا يبكي أحد

الموت هو تلك النهاية التي لا يحيد عنها حي مهما طال عمره. وقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر الموت ثلاث مرات على الأقل حتى تحسن أعمالنا، فإن علم المرء أنه ميت لا محالة وأنه سيسأل عن كل ما عمل لاشك أنه سيعيد حساباته فيحجم عن الظلم والسرقة والقتل وغيرها من المعاصي خوفا من عقاب الله. فتذكر الموت – من منظور إسلامي- يشفي النفس من الحرص على الدنيا ومن النهم والشره لكل مغرياتها نتيجة اطمئنان القلب للقليل من أجل التزود ليوم الرحيل. لكن شاعرنا عبد الصبور قد أرّقه الموت وقدّ مضجعه وهو ينتظره بين لحظة وأخرى (قبل أن تلحق رجل رجلا). ويرى أن الموت محطم آماله وأحلامه وواضع حدا لطموحاته وأهدافه، فهو هادم اللذات ومفرق بينه وبين رفاقه. وهو يخاف أن يدركه الموت وحيدا بعيدا عن أهله وخلانه، وبالتالي (لا يبكي أحد على موته) أو أن يفاجئه (في زحمة المدينة المنهمرة). وقد يتذكره رفاقه ذات مرة فيقولون (كان هنا) أو (رحمه الله).

مجلسه كان هنا وقد عبر

فيمن عبر ...

يرحمه الله ...

ولعله لا يجانبني الصواب لو قلت إن سر خوف عبد الصبور من الموت هو اعتناقه لفكرة (نيتشة) الداعية إلى الإنكار، فعبد الصبور يفزع من الموت لأنه يرى فيه عقابا منتظرا. ولا يجد شاعرنا من سبيل للخروج من مشاعر الموت والوحدة والغربة والضياع إلا معانقة الحياة والعب من طاقاتها، شأنه شأن المتشبثين بهذه الحياة والحريصين على متاعها. يقول عبد الصبور:

[ينبئني] شتاء هذا العام أننا لكي نعيش في الشتاء

لابد أن نخزن من حرارة الصيف وذكرياته ... [دفننا]

ولكن شاعرنا لم يتمكن من تخزين دفء الصيف ليستعين به على العيش فقد تسربت إلى نفسه مشاعر الموت والوحدة والضياع من جديد فيقول:

لكنني بعثرت كالسفيه في مطالع الخريف

كل غلالي كل حنطتي وحبي

كان جزائي أن يقول لي الشتاء إنني

ذات شتاء مثله.

أموت وحدي

ذات شتاء مثله ، أموت وحدي

وفي قصيدة (أغنية الليل)[41]، يبدو اغتراب الشاعر واضحا حيث يجسّد لنا إحساسه بالغربة في قوله:

الليل سكرنا وكأسنا

ألفاظنا التي تدار فيه نقلنا وبقلنا

الله لا يحرمني الليل ومرارته

فالشاعر يرسم الإطار الزماني الذي تدور فيه مأساته، وهو الليل الذي يحس فيه بالمرارة رغم وجود السَّكر والكأس. يعمق الليل من مأساة الشاعر وأحزانه فيعود إلى ذكره والحديث عنه قائلا:

الليل ثوبنا، خباؤنا

رتبتنا، شارتنا التي بها يعرفنا أصحابنا

لا يعرف الليل سوى من فقد النهار

هذا شعارنا

فالليل أصبح السمة المميزة للشاعر والدالة عليه، وهذا دليل على طغيان الليل بآلامه ومآسيه حيث امتلك على الشاعر فكره أو لبه. ورغم أن الشاعر ألِف هذا الليل إلا أنه مازال يشعر بالاغتراب فيه، ويخشى الموت في وحدته، وهذا ما يزيد من تعاسته وغربته.

الاغتراب الذاتي: ويقول في سن الثالثة عشر جريا على منوال القدامى والمحدثين من الغربيين:

سئمت الحياة وعفت العمر

وأنكرت مر القضاء والقدر

يقسو الزمان على العبقري

أهـذا جـزاء أديـب شعـر

وشعري يقل ووهمي يخيب

وعمري ثلاثة وزدن العشر[42]

فالشاعر يقتفي آثار القدامى من الجاهليين، وهو يفتعل الحزن والسأم لأن صبيا في مثل سنه لا يمكن له إلا أن يكون سعيدا باعتباره بين أحضان والديه.

يقول في مقام آخر متبرما:

رباه ما ذى الليلة الباردة

نجومها آفلة خامدة

وريحها معولة شاردة

أسير في طريقي

قفر من الرفيق

ألوك لحن لوعة

ممزق العروقي

وصحوة غارقة

في مهمه سحيق

تلوح خلف الأكمة

مشنقة مدممة

قنينة مهشمة

ولقمة مسممة

وخطوة محطمة

وصخرة ميممة(43)

وهي آهات وزفرات تدل على غربة وضياع الشاعر.

ويحس عبد الصبور بغربة نفسية قاتلة نتيجة مرور الأيام بلهاء دون معنى، لا تزيده إلا سأما في ظل المآسي والهزائم وضياع الأماني والأحلام. ذلك لأن الأيام تكرّر ذاتها ولا تأتي بما يثلج الصدر ويفرج الكرب، فيُفرِح النفس ويعيد إليها بهجتها وراحتها. يقول عبد الصبور في قصيدته الموسومة بـ"مذكرات رجل مجهول":

أصحو أحيانا لا أدري لي اسما

أو وطنا أو أهلا.

وهي نهاية درجات التيه والاغتراب الذاتي، ويقول عبد الصبور في قصيدة له بعنوان (حديث في مقهى):

تعصر قلبي الوحدة في ساعات العصر المبطئة

الخطوات

تبدو الدنيا في شباكي

ميتة مسجاة

باهتة اللون مكتملة الأصوات

أمضي عندئذ أتسكع في الطرقات(44)

يحس الشاعر بثقل الأيام على نفسه حتى يضيق صدره ويضيق بها ذرعا. ولأنها كئيبة فهي تخنقه، تعذبه، تحسسه بالوحدة، خاصة في المساء حيث تخف الحركة ويخف النشاط ويأوي كل إلى بيته ومضجعه. ثمة تنفرد الوحدة بشاعرنا فتعصر قلبه حتى يخرج متسكعا في الطرقات عله يخفّف من وطأة تلك الوحدة القاتلة، ولكنه لا يقوى على مواجهة هذا المساء فيعود أدراجه وينكفئ كي:

أجدل حبلا من زهوي وضياعي

لأعلقه في سقف الليل الأزرق

أتسلقه حتى أتمدد في وجه قباب المدن الصخرية(45)

الاغتراب في المدينة: يحس الشاعر بالاغتراب والتيه في المدينة التي امتلأت أضواء وضجيجا وزحاما، ولذلك فهي تضيف مأساة إلى مأساته. يقول:

أحس فيك يا مدينتي المحيرة
بأنني أضل من رسالة مغلقة بلا عنوان[46]

فهذه المدينة لم تول أي أهمية للشاعر حتى أصيب بالإحباط، ولم تعترف له بإنسانيته، فخاف وحشتها وتكالب وحوشها الضارية. وربما أحس شاعرنا أن هذه المدينة تلفظه وتغلق أبوابها في وجهه. فهو مجرد رقم من أرقام دفاترها، لا يملك أي قدرة لتحقيق ذاته أو الإحساس بإنسانيته. ولهذا فهو غريب طريد، لذلك فهو يمقت المدينة ويكره العيش فيها.

الاغتراب الديني: يقول صلاح عبد الصبور عن المرحلة التي كتب فيها ديوانه الأول (الناس في بلادي): "ساعدتني الفلسفة المادية التي اقتربت منها اقترابا كبيرا وبخاصة بعد تخرجي في الجامعة عام 1951 على أن أجد في الإنكار لونا من الموقف الفكري الموحد المتماسك،وقد تكون مرحلة ديواني (الناس في بلادي) هي المعبرة عن ذلك الإحساس"[47].

يقول عبد الصبور:

غاية الإنسان ما أتعابه؟
ما غاية الحياة ؟
يا أيها الإله !!
الشمس مجتلاك، والهلاك مفرق الحيين
وهذه الجبال الراسيات عرشك المكين.
وأنت نافذ القضاء ... يا أيها الإله .
بنى (فلان) واعتلى وشيد القلاع ...
وأربعون غرفة قد ملئت بالذهب اللمّاع.
وفي مساء واهن الأصداء جاءه عزريل.
يحمل بين إصبعيه دفترا صغيرا.
وأول اسم فيه ذلك (الفلان).
ومد عزريل عصاه.
بسر حرفي (كن) بسر لفظ (كان).
وفي الجحيم دحرجت روح فلان
أيا يأيها الإله
كم أنت قاس موحش يا أيها الإله[48]

فهو يحكي قصة قرية ريفية تعيش تحت طغيان، فكرة الله وصورته تصطبغ في ذهنها من خلال الوعظ والتخويف بالقوة، والقرية تستخلب هذه الفكرة وتستطيبها، وتغض النظر عن واقع حياتها المرير، ولكنَّ شابا منهم يرفع في وجه السماء قبضة التحدّي، ويعني بذلك نفسه.

أما قصيدة (الموت بينهما)[49] فتحدثنا عن غربة صلاح عبدا الصبور عن الله في قوله:

فأنا منذ زمان، منذ هجرتني شمس عيونك

وألفت الظل الرواغ

أتخفى أحيانا تحت جدار التشبيه

أو في حجر التورية وشق الإيماء.

فلما أنكر العبد ربه وجفاه جفت حياته من منابع السرور، وأصبح لا يرى الحياة إلا سرابا بسبب هذا الهجر. ويواصل قائلا:

ماذا تبغيني يا رباه؟

هل تبغيني أن أدعو الشر باسمه؟

هل تبغيني أن أدعو القهر باسمه؟

فلما عصى عبد الصبور ربه أحس أنه مغضوب عليه وأنه قد لعن وطرد من رحمة الله فقال:

أخرج منها فإنك رجيم

أخرج منها فإنك رجيم

فهذا الطرد وهذا اللعن نجم عنهما حيرة الشاعر واغترابه عن ربه وعن نفسه، فعاش طريدا هروبا من عقاب الله، يبحث عمن يأويه أو يحميه أو يحتويه مما لحق به نتيجة غضب الله يقول:

دثّريني ... دثّريني

زمّليني ... زمّليني

وخذيني بين نهديك وضميني فلا يجد

الصوت الإلهي طريقا لصماخي أو عيوني

دثّريني ... دثّريني

زمّليني ... زمّليني

لا يضيعني وقد ضاع يقيني

فضياع يقين الشاعر هو الذي جر عليه الوبال، وجرى كأس المرار حتى راح يبحث عن الدثار هروبا من هم الواقع وشروره. والحقيقة أن كثرة الظلم في العالم وغياب العدل وانحصار الحريات هي سر غضب الشاعر الذي مزّق مشاعره وجعله يحس بالضياع والغربة. ونخلص إلى القول إن شاعرنا ظل متألما. حزينا متغربا لما آل إليه هذا الواقع الذي عجز عن إصلاحه.

الغربة في الحب: يقول عبد الصبور: أما في سن السادسة عشرة فقد كنت عشت حياة الشاعر، أحببت وتعذبت، فارقتني محبوبتي –

عشقتها صادقا من مهجتي ودمي

لكنها الحب من زيف وبهتان

لكنها قلبها سر حوى سبلا

كالتيه ظل بها فكري ووجداني

لكنها تركتني ، يا لمهزلتي

في الليل حبي وعند الفجر هجراني

آه لها من جراحي حطمت كبدي

لو تنفع الآه ميتا بين أكفاني

فالشاعر يتحدث عن تجربة حب فاشلة، ويصف المحبوبة بالقاسية، ويصف فؤاده بالمحطّم، وهو الضعيف الذي يشكو ويتذلل، وهي القوية التي تقسو وتدلل. ويقول في سياق آخر:

ليلى بعيني أضحت نشوة ودمي

أضحى لهيبها وقلبي غير نوراني

والحـب مـن نشـوة الأجسـاد

فالحب ليس سوى أحلام وسنـان

ولكنها لا تعدو -كما يشير الشاعر- أن تكون تجربة فنية.

خاتمـة

لقد كان صلاح عبد الصبور شاعرا متدفقا بالحيوية مستمسكا بتلقائية التعبير ومتوج الإيقاع وفقا لما تقتضيه درجة المعاناة. إنه شاعر ومفكر أو فلنقل إنّه شاعر فيلسوف. وهو من المحدثين الذين رفضوا أن يُنسَب شعرهم في جملته إلى عالم الماوراء، حتى وإن صرخ في وجه المستبد ذلك الصراخ الهادئ. وهو بين معاصريه سيد النسق الموسيقي المزاح عن الضوابط الخليلية والمفعم -على تزاحم أفكاره- بالحساسية ورهافة الفائقة.

فالشاعر يمتلك زمام النصوص التي يكتبها على نحو يبيّن أنه قطع في مغامرته مع اللغة مسافات يعدو فيها التشاؤم واغتراب الروح والوحدة والإحباط والظلام عناصر غنائية استطرادية تمكن التعبيرات الغنائية الشائعة من أن تنفتح على أزمان معاناته اللامحدودة وبإيقاعات وتدفقات هادئة آسرة.

الهوامش:

1- فاطمة محمد حميد السويدي: الاغتراب في الشعر الأموي، القاهرة، مكتبة مدبولي 1997، المدخل ص (ب).

2- د. سعد دعبيس، حوار مع قضايا الشعر المعاصر، ص 135.

3- المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

4- الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 2004، مادة (غ ر ب).

5- ابن منظور: لسان العرب، بيروت دار صادر، (د، ت) المجلد الأول ، مادة (غ ر، ب).

6- المعجم الوسيط: جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية / الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث (د،ت)، ص 647.

7- مصطفى حسبة: المعجم الفلسفي / عمان الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2009، ص 75.

8- ريتشارد شاخت: الاغتراب : ترجمة كامل يوسف حسين، القاهرة ، دار شرقيات للنشر والتوزيع، 1995، (ط2)، ص 55.

9- الموقع: www.mubook@gawab.com.

10- الموقع نفسه.

11- سليمان حسين، مضمرات النص والخطاب، دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص 201.

12- المرجع نفسه، ص 201، نقلا عن مجاهد عبد المنعم، الإنسان والاغتراب، ص 36.

13- المرجع نفسه، ص 28.

14- سليمان حسين، المرجع السابق، ص 203.

15- عمر بوقرة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945-1962، ص 14.

16- الجاحظ، الحيوان، ص 316.

17- محمود رجب / الاغتراب أنواع ..." الفكر المعاصر، العدد الخامس، يوليو 1965، الصفحة 18 وما يليها.

18- www.nizwwa.com.

19- سليمان حسين، المرجع السابق، ص 200.

20- المرجع السابق، ص 200.
21- المرجع السابق، ص 200.
22- محمد علي محمد، تاريخ علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1989، ص 134-135.
23- سليمان حسين، المرجع السابق، ص 203.
24- عبد العزيز المقالح، الشعر بين الرؤيا والتشكيل، للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، أوتوستراد المزة، ص 61.
25- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، ص 122.
26- صلاح عبد الصبور، المرجع السابق، ص 65-66.
27- صلاح عبد الصبور، المرجع السابق، ص 65-66.
28- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه الفنية والمعنوية، طبعة 5، المكتبة الأكاديمية، 1994، ص 356-357.
29- د. سعد دعيبس، حوار مع قضايا الشعر المعاصر، ص 135.
30- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 07.
31- المصدر السابق، ص 08.
32- الأستاذ متقدم الجابري، تجليات الاغتراب في شعر صلاح عبد الصبور، مجلة الآداب واللغات، جامعة ورقلة، العدد الرابع، ماي 2005، ص 88.
33- المصدر السابق، ص 08.
34- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 148.
35- المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
36- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 149.
37- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 148.
38- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 263.
39- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 294.
40- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 193.
41- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 200.
42- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، ص 59.
43- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، ص 72.
44- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 319.
45- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 325.
46- صلاح عبد الصبور، ديوان شجر الليل، ص 55.
47- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، ص 150.
48- صلاح عبد الصبور، الديوان، الناس في بلادي، ص 151.
49- صلاح عبد الصبور، الديوان، ص 263.